الشيعة: من المحرومين الى المستضعفين

روجيه نبعه

من «المحرومين» الى «المستضعفين»، من اولئك المحرومين من حقوقهم ـ او بالأحرى المحبطين ـ المبعدين عن الحياة العامة، الى أولئك الضعفاء المستلبين الذين تركوا فريسة لليأس الصامت، ثمة ما يجعلهم يرجعون مرات ومرات.

من «المحرومين» الى «المستضعفين»، فكرة لجوجة تتردد منذ فترة في خطاب الشيعة عندما يريدون التحدث عن ذواتهم وتعريف انفسهم مقارنة بالآخرين.

فكرة لجوجة كمجرى دائري ينشر حياتهم لكنه يطويها في الوقت نفسه في شباك الذاكرة، لولادة مثقلة، منذ ان كانت مطبوعة باهمالهم ورفضهم وطردهم من التاريخ السني للاسلام، عندما استبعد علي «الوريث الشرعي» للنبي، مؤقتا، من قبل الخلفاء السنة الثلاثة واستبعد نهائيا من قبل معاوية. اي استبعد منذ البداية.

مجرى دائري يبدو انه عرف مع الثورة الاسلامية في ايران منفذا، عودة بالقوة للشيعة الى مسرح التاريخ الاسلامي في الشرقين الأوسط والأدنى وفي العالم.

وفي الشرق الاوسط، في لبنان، حيث عاشوا حياتهم بشكلها الموروث اي كمطرودين وكاحتمال عودة، هنا ايضا، وفي الوقت نفسه، نجح شيعة لبنان في الغاء استبعادهم، وهو الغاء سجل منذ شباط ١٩٨٤ (انتفاضة بيروت ضد هجمة امين الجميل) وتحرير الجنوب (١٩٨٤ ـ ١٩٨٥) دخولهم بالقوة الى المسرح العام في لبنان حيث تقدموا بثقل وزنهم السكاني (٨٠٠ الف نسمة وفق اكثر التقديرات تحفظا ـ ١٣٠٠٠٠٠ حتى ١٥٠٠٠٠٠ وفق تقديرات الشيعة «المطلعين»).

تاريخ الشيعة في لبنان، منذ استقلاله عام ١٩٤٣، مطبوع اذن باستبعاد مزدوج ـ الاول يمتد في الساحة الداخلية لذاكرتهم الدينية، المشتركة لدى كل الشيعة، والتي تبدو الثورة الاسلامية في ايران صاحبة الفضل في الغائها. اما الاستبعاد الثاني فهو اكثر تخصيصا، على الرغم من ان الأول يرسم طيفه. هذا الاستبعاد يطال كيانهم الطائفي في المجتمع اللبناني (دولته، تاريخه، تشكيله السياسي والدستوري، جيشه، مدنه، اقتصاده وتجارته الكبرى، وجغرافيته) الذي ابعد عنه. هذا التاريخ سيطبع ايضا، اعتبارا من ١٩٦٩، عبر انشاء المجلس الشيعي الأعلى من قبل الامام الصدر. وبعد ذلك بوقت، بانشاء حركة «امل»، بمسيرة مضادة هدفت الى ازالة الاستبعاد عبر الاستبعاد نفسه.

يعترف ميثاق ١٩٤٣، اساس لبنان السياسي والطائفي، بالشيعة، لكنه يجرد هذا الاعتراف من اي محتوى سلطوي. وما آل اليهم من الاقتسام الكبير في ١٩٤٣، كان رئاسة مجلس النواب. حظوة الشخصية الثانية في الدولة. منصب استعراضي. وبسبب من تجديده كل عام فقد خضع هذا المنصب لتقلبات الاوضاع وتوافق الصدف. انه منصب ذو طابع تكتيكي اكثر منه استراتيجيا، وقد اضعفه عضويا كونه يمثل الاطراف ـ الجنوب البقاع ـ الهرمل (اي المناطق المتخلفة) في اطار لبنان. كانت هذه المناطق مفصولة عن المدى اللبناني للبلاد. كما اضعفه كونه يمثل طائفة ثانوية بين الطوائف الرئيسية. وفي داخل هذه الطائفة غير المحددة، لأن الطائفة ككيان سياسي وقوة حكم ذاتي لم تكن بعد فكرة شائعة لدى الشيعة، كان رئيس مجلس النواب لا يمثل سوى «العائلات الكبرى» ـ العشائر وانصارهم والخلافات الثابتة حول ترهات سياسية.

منصب استعراضي، اما السلطة الحقيقية فكانت في مكان آخر، في المركز بيروت، وفي يد الطوائف الرئيسية ومن بينها الموارنة الذين اقاموا غلبتهم. الشيعة كطائفة لم يكونوا مشاركين في السلطة، بل هم اسميا كمسلمين، دخلوا في حساب السنة الذين احتكروا تمثيل الاسلام السياسي. واخذوا حصتهم من الذي تبقى من السلطة.

هذا الترتيب للامور كان فريدا. فهو يموضع الطائفة ويوصفها في النظام الطائفي اللبناني حيثما وجدت، كشيعة، بعيدا عن لبنان اللبناني فعلا. هجرة الشيعة المكثفة الى المدينة بدات في اوائل الخمسينات، ثم تواصلت. كانوا يجيئون من الاماكن النائية في لبنان، من الجنوب والبقاع والهرمل. اقتصاد فككه مرور الاستعمار، ثم اهملته الدولة المركزية والاستثمار المالي العالمي (البنوك، التجارة، السياحة، التحديث، المواصلات، المطاعم، الفنادق، الطرقات الدولية) الذي أتاح لبيروت وللبنان اللبناني الثروة والرفاهية. لم يكن هذا بؤس مطلق، على الطريقة الهندية، لكنه كان استبعادا.

وقد بدا الشيعة بعد ذاك في سكنى ما سمي لاحقا «الحزام الاحمر» لبيروت (الكرنتينا، المسلخ، برج حمود، النبعة، تل الزعتر والمكلس) وضاحيتها الجنوبية (الشياح، الغبيرة، برج البراجنة، بئر العبد، حي السلم، حارة حريك المريجة والأوزاعي). مناطق تعايشوا فيها مع الفلسطينيين.

وفي هذه المناطق التي خلقوها بسكناهم لها، كانوا محكومين بعيش ابتعادهم وهامشيتهم. هذه الأحياء كانت دائما مزدحمة وسيئة التجهيز، معدمة، غير صحية. ما من خدمات ومواصلات ولا تجهيزات جماعية، ولا اي قواعد صحية. ما من مساحة مجانية. امكنة مهملة ومحشورة لا يتوفر فيها شيء من ضروريات الحياة اليومية والمهنية. وبسبب رفض المدينة لهم لم يتحولوا الى مدينيين، كما لم يعودوا ريفيين لان القرى التي اضطروا لتركها، كان يجب ان ينسلخوا عنها بطريقة ما برغم انهم اوجدوا صورة لها في الأحياء حيث تراكموا في فوضى، موجات من المهاجرين، عائلات وعشائر، مع تقاليد وعادات تفرقهم عن اماكن اقامتهم الجديدة، المعزولة جغرافيا عن المدينة، لكن المرتبطة بتاثيراتها. انها طريقة ما لتوريطهم مع ابقائهم خارجا.

عندما بداوا في الوصول الى المدينة والسكن في ضواحيها، اشتغلوا في الدوائر الهامشية للاقتصاد اللبناني. في كل شيء ما عدا الدائرة الكبرى، الدائرة الدولية (التي احتكرها المسيحيون والسنة، وجميعهم من ابناء المدن او من سكانها). وقد استفادوا من ذلك، لكن بتاثيرات بقيت دائما هامشية. عملوا في الصناعات الحرفية الصغيرة التي لا تتطلب اية مهارة مهنية جدية، واشتغلوا في مهن شعبية حفظت لهم «استقلالهم» مثل الميكانيكي والسمكري والكهربائي وسائق التاكسي. البعض منهم عمل لاحقا صحافيا واستاذا ومحاميا وطبيبا، وآخرون جلبوا من قراهم مهنا وسبل عيش سمحت لهم بالبقاء. وعندما كانوا يتوظفون في قطاع الدولة وفي جهازها الاداري او الدبلوماسي او الاقتصادي او السياسي او العسكري او الأمني او التعليمي او الاعلامي، انما كانوا يحصلون بالضرورة على المراكز الثانوية ونادرا ما كانوا يحصلون على وظيفة رئيسية.

الشيعة كطائفة كانت تشبه حركة بالقوة، ولتبقى كذلك بالقوة، خارج الاطار اللبناني للبنان. الكثيرون هاجروا، جمعوا ثروات وعادوا الى الوطن. والى هذه الفترة تعود ولادة الراسمال الشيعي الذي وظف في العقارات والأراضي والزراعة المكثفة (خصوصا في الجنوب)، وفي مجالات الثقافة الترفيهية (السينما) ومجالات اخرى (المطاعم) وفي التجارة خصوصا في الملابس وفي بعض الصناعات التحويلية الصغيرة. اي في دوائر لا تنتمي الى الدائرة الكبرى لكنها تساهم في خلق حركة اعمال شيعية داخل الحركة الكبرى للاقتصاد اللبناني.

الآخرون، في تلك الضواحي حيث اقاموا، رافضين ما رفضهم، كانوا ينتظرون.. انتظار بدون تعبير سياسي محدد، انتظار للافضل الذي لا يمكن أن ياتي سوى من التغيير ـ من العروبة والناصرية والبعثية والثورة الفلسطينية والشيوعية، حين مثلت هذه التيارات التغيير في نظرهم.

الحركة التي انشاها موسى الصدر عام ١٩٦٩، ابتدات عبر الحرب وبسببها، واعتبارا من ١٩٧٥، تاخذ شكل الطائفة وتنتظم في كيان سياسي وتنغلق.

وفي الحرب، عاش الشيعة التجربة الماساوية لتهميشهم السياسي. كانوا اول من تم تهجيره بكثافة ودفع ثمن سياسة وضعها الآخرون، لم يكن لهم حق المشاركة فيها. كل الحزام الأحمر لبيروت ـ ٢٥٠ الى ٣٥٠ الفا وفقا للتقديرات ـ تم افراغه ودكه ما بين شتاء ١٩٧٥ وربيع ١٩٧٦، بينما ومن الجهة الجنوبية عاد اولئك الذين استطاعوا الهرب من مجازر المسلخ والنبعة والكرنتينا وتل الزعتر، هاربين هذه المرة من آلة الحرب الاسرائيلية.

لم يمارس الشيعة اية سيادة في اي بقعة، وفوق اي من مناطقهم. لا في البقاع حيث هم ثانويون في التمثيل الاسطوري والتاريخي لـ «الشيعة»، ولا في الجنوب، الأصلي، منطقة جبل عامل، المركز الروحي المهيب للشيعية اللبنانية، المكان الذي كان سيختار أن يموت فيه ابو ذر الغفاري، احد اكثر صحابة الرسول جذرية، واحد اولئك الذين يرى الشيعة فيه ممثلا لهم، ويعلنون ذلك. وفي هذا الجنوب، ارضهم ومرجعهم، تقاسم الفلسطينيون والاسرائيليون السلطة بعنف. ولا في «بيروتهم»، الحزام الأحمر والضاحية الجنوبية التي سكنوها بكثافة، ولكن حيث ضرورات الحرب سلطات اخرى.

ومع الحرب فقط، ابتدات الحركة التي اثارها موسى الصدر تتشكل. مشروع التغيير الذي قدمته المقاومة الفلسطينية (والحركة الوطنية اللبنانية بقيادة كمال جنبلاط) هزم. ومنذ ذلك الحين صار الفراغ السياسي افقا لكل المشاريع. وراح الكمون الطائفي الذي كانت تحتضنه المجتمعات اللبنانية، وتحت ضغط الموارنة الذين منحوا انفسهم «جهاز دولة طائفي»، يتفعل ويفرض نفسه، على الجميع وفي كل شيء. كنظام وحيد للمجتمع، في الاجتماع والسياسة والادارة والجيش والجغرافيا وفي الجبهات الداخلية. ومنذ ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠، بعد ان خفت تاثيرات الاختفاء الغامض للامام الصدر، وبرز تحريض الثورة الاسلامية في ايران، قرر الشيعة علنا أن يجعلوا في صلب مسيرتهم، ارادة تنظيم مسرح استقلالهم. وابتداء من ذلك التاريخ، قامت بين الشيعة وحلفائهم، مسافة خلاف ونزاعات. ودارت في كل مكان، في الجنوب والبقاع والضاحية الجنوبية، وفي كل مكان اقاموا او تقاسموا الارض فيه معارك بين حركة «امل» والمقاومة لفلسطينية («فتح» اساسا) وحلفائها في الحركة الوطنية، اشتدت تدريجا، واستمر بعضها اياما. حروب بدون هدف عسكري، بدون بداية ولا نهاية. لكن الشيعة كانوا منطلقين في البحث عن استقلالهم والحاجة الى استعادة «اراضيهم الطبيعية».

وعلى كل الجبهات حيث كانت تخاض معركة تنظيم حكمهم الذاتي، لاقت مسيرة الشيعة مقاومة كانت احيانا غير قابلة للحل. سلسلة معوقات كبلتهم: ارض مشتتة في اطراف لبنان اللبناني. وعلى هذه الأرض التي يستحيل توحيدها يقيم اعداء مسلحون هم حلفاء مفترضون (الجزء الأكبر من الميليشيات ومقاتلي الحركات الفلسطينية واللبنانية وتشكيلات اليسار والقوميين كان من الشيعة). عقبتان رئيسيتان: كيفية استعادة «الأرض الطبيعية» بطريق غير عسكري؟ وكيفية استعادة «الرعايا الطبيعيين» بدون الانغلاق واستبعاد الآخر، وتعريف الذات من خلال هذا الاستبعاد.

الشيعة كطائفة، ككيان سياسي واستقلال ذاتي، وفي اطار النظام الذي يحكم علاقات المجتمعات اللبنانية وخصوصا الطوائف الرئيسية، اخذوا في حسابهم منطق الطائفية وخطابها وممارستها ولغتها، لكي ينطلقوا للاستيلاء على ابناء طائفتهم.

العامين ٨٤/ ٨٥ كانا عامي التكريس الساطع. لقد كانا عامي الدخول (بالقوة) الى المسرح اللبناني. ٨٤/ عام النصر في بيروت، جنيف ولوزان، الغاء اتفاق ١٧ ايار، المشاركة في حكومة الانقاذ الوطني الذي ادى الى الاعتراف بها كطائفة رئيسية، بعض الامتيازات الادارية. ٨٥/ عام تحرير الجنوب، الأرض المفضلة، وبسبب البعد الاقليمي ـ الدولي الذي يحتله الجنوب، «المركز»، احد «المراكز» على الاقل في السياسة اللبنانية. في هذه السنوات نجحت الطائفة الشيعية في تاسيس وتقييم استقلال مسرحها السياسي على اراضيها. كل المعارك التي خيضت ضد اولئك في الداخل او ضد الاعداء في الخارج، استراتيجيتها في التحالف الخاص مع سوريا (وهي الطائفة التي افتقدت دائما الجانب الاجنبي) تحالفاتها وتحالفاتها المضادة، لها جميعها، في مكان ما من جذورها علاقة ما بهذه الارادة (الاستراتيجية) في الاستقلال الطائفي.

وكان التيار الاسلامي الذي اندفع في الفترة نفسها، لكن ببعد عالمي، يعمل في صفوف المسلمين ومن بينهم شيعة لبنان وطائفتهم. انه الوحيد الذي يستطيع في اللحظة الراهنة، ومن الداخل، ان يكسر حدودها، ويغمرها ويعيدها في لغة اخرى، وفق تقاليد اخرى، نحو آفاق مختلفة.

لقد كانت مسيرة الشيعة مزدوجة. وباختصار يمكن القول ان خطي السير ينطلقان بشكل دائم، كلاهما، من استبعاد. الأول من المسرح السني للاسلام، والاخر من المسرح اللبناني. ويبدوان كلاهما، في الوقت نفسه تقريبا، وكانهما توصلا الى الغاء هذا الاستبعاد. لكن بين هذين المجريين والحركات التي تقودهما، فانه لا يمكن تصنيف الخلاف بين «المعتدلين» (اي امل) و «المتطرفين» (التيار الاصولي) وهو لا يعني شيئا حتى ولو قال كل شيء.

وفي صلب هذين التيارين ثمة خلافات من طبيعة غير قابلة للتصالح: بين مسيرة متمحورة حول نفسها، كطائفة، وحول لبنان كمركز وافق، وبين مسيرة اخرى متمحورة حول الاسلام في بعده الروحي والزمني وامتداده الجغرافي.

من «المحرومين» الى «المستضعفين»، وبالرغم من الظواهر التي تقربهما، فان ثمة فارقا كبيرا بين شيعي لبناني (المحرومين) وبين شيعي من لبنان (المستضعفين).

ترجم النص عن الفرنسية حسان حيدر.

السفير، ٨ نيسان ١٩٨٦